القيم التربوية الصوفية الثاوية فى ابتلاء سيدنا يوسف عليه السلام من خلال التفاسير الإشارية

فاطمة التيس

جامعة محمد الخامس المغرب

ملخص:

يندرج هذا البحث ضمن تفسير القرآن الكريم في اتجاهه الإشاري، الغني بمعالم التربية الروحية، والقيم الأخلاقية، التي تهدف مجال سمو النفس، وتقوية الإيمان، وتثبيت اليقين، التي تعين على مواجهة إكراهات تراجع منظومة القيم والأخلاق. إذ من المهم أن نستلهم من تراثنا ما يدعو إلى نهضتنا وتطورنا، كما من المهم أن ننقي تراثنا مما ألصق به من شوائب الأفكار التي نسبت إليه. خاصة أن مبحث التفسير الإشاري يعد من المباحث الخلافية التي تعددت بشأنه الآراء وتباينت حوله التفاسير والأحكام. مما يجعل الأمر جديرا بالبحث والتأمل. فهو محاولة لتصحيح المفاهيم، لتجاوز النظرة السطحية لقراءة النصوص الصوفية، لأن أزمتنا الحقيقية هي أزمة مفاهيمية بامتياز. ولمعالجة هذا الموضوع انطلقت من الإشكالية التالية: إذا كان المقصود من التفسير الإشاري، هو أن النصوص ليست على ظواهرها، وإنما بما تحويه في باطنها من إشارات خفية لا يدركها إلا أصحاب الكشف وأرباب السلوك، فما مدى موافقة التفسير الإشاري للشريعة؟ وكيف وافق الصوفية بين المعنى الظاهر والباطن؟ وهذا التعدد في الرؤى هل هو تعدد تنوع وتكامل أم تعدد اختلاف وتجزؤ؟ وكيف

يمكن للتفسير الإشاري أن يساهم في إبراز القيم المتضمنة في قصة ابتلاء سيدنا يوسف عليه السلام؟ وأن يحدد مدلولاتها التربوية والأخلاقية، وما يرتبط بذلك من توجيه في تربية نفوس النشء؟ وإلى أي مدى يمكن أن يؤثر في مجال الترقي الروحي؟

معتمدة في ذلك على المنهج الوصفي، باعتباره طريقا لوصف الظاهرة المدروسة وتصويرها كما وكيفا.

-كلمات مفتاحية: القيم التربوية-مدلولاتها-خصائص-التفسير الإشاري.

Sufi educational values that are rooted in the affliction of Prophet Yusef, peace be upon him through indicative interpretations.

Abstract:

This research is part of the interpretation of the Holy Qur'an in its indicative dimension, which is rich in spiritual teaching and ethical values. These latter aims at self-esteem, strengthening faith, and stabilizing certainty, which helps to confront the constraints of declining values and morals in our society. It is important that we draw inspiration from our heritage for our renaissance and development. It is also important to clean our heritage from the imperfections of the ideas that have been attributed to it. The topic of indicatve interpretation is one of the controversial investigations on which opinions, interpretations and rulings differed on it. This makes it worth reflecting on. It is an attempt to correct concepts, to transcend the superficial view of reading Sufi texts, because our real crisis is a conceptual one.

To address this issue, I started from the following problematic question: if the indicative interpretation means that the text is not interpreted superficially, but with the hidden references it contains, which only the Sufis, masters of conducts, can disclosure, how well do the indicative interpretations agree with Sharia.

How has Sufism balanced between the apparent, superficial meaning and hidden meaning. Is this multiplicity of visions a multiplicity of diversity and integration or multiple differences and fragmentation? How can the indicative interpretation contribute to highlighting the values

contained in the story of the affliction of our master Joseph, peace be upon him, defining its educational and moral implications for young people? To what extent can it affect spiritual advancement?

I have relied on the descriptive approach, as it is a way of describing the studied phenomenon and depicting it quantitively and qualitatively.

Key words: Educational values - their meanings – characteristics – indicative interpretation.

مقدمة:

يعد مبحث التفسير الإشاري من أهم المباحث الخلافية التي تعددت بشأنه الآراء وتباينت حوله التفاسير والأحكام، فلا تكاد تذكر الكلمة إلا ويثار حولها الجدل وترتفع حرارة الحوار ويكثر المتشنجون، خاصة في هذا العصر الذي شاعت فيه ثقافة التبديع والتكفير، وكثرت الدعاوى ضد التصوف والمتصوفة، وأصبحت السمة الغالبة بين المسلمين هي الاتهامات المتبادلة، وادعاء كل فريق أنه-وحده-على الحق، وأن غيره من الفرق على الباطل.

هذا التعدد في الآراء والتباين في التقييم والحكم يجعل الأمر جديرا بالبحث والتأمل، لأن إصدار أحكام ودعاوى من مثل هذا النوع يتطلب من الباحث أن يقلب صفحات التاريخ متمعنا ودارسا، وأن يرجع إلى المؤلفات والمخطوطات، لاستجلاء الأمر والتثبت من مدى صحة هذه الدعاوى، أو تهافتها مما يستلزم الرد عليها من تراثنا الإسلامي الذي بناه علماء ربانيون جمعوا بين الحقيقة والشريعة. وخلفوا تراث غني بمعالم التوحيد والتربية، التي تسعى لتقويم السلوك، ومواجهة إكراهات تراجع منظومة القيم والأخلاق.

ومن بين القضايا المرتبطة بإشكالية التفسير الاشاري، استعماله للغة الرمز والإشارة، التي تكشف عن طريقة وتجربة الصوفية، لا سيما أنهم يوجهون الآيات كشواهد لهذه الرموز والمصطلحات.

يقول الشيخ ابن عطاء الله السكندري: «اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالـمعاني الغريبة...، ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم

منه ما جلبت له الآية ودلَّت عليه في عرف اللسان، وثَمَّ أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لـمن فتح الله قلبه»[1].

فالقوم وإن اشتركوا مع غيرهم في ظاهر اللفظ، فهم يختلفون في الفهم والقصد، وخير مثال نستدل به على هذا التنوع قول الله عز وجل في محكم كتابه: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [سورة الرعد، الآية:4]. فالنباتات رغم توحد مشربها فهي تتباين في الثمار، والأصل في هذا التباين ليس في الغداء أو في الماء، وإنما في الشفرة والخصائص التي أودعها الله سبحانه وتعالى لكل نبتة، فتختار من الأرض ما يميزها، وهذا ما ينطبق على الصوفي، بحيث أنه قد يسمع ما لا يسمعه غيره، ويفهم ما لا يفهمه غيره.

وبالتالي فالصوفي يفهم مصطلحات الخطاب القرآني حسب السياق الذي قيل فيه، كما يفهمه حسب المقام والحال الذي فيه. ولهذا كلما اختلفت الفهوم، تعددت التفاسير.

وهذا مما يكشف عن أهمية تراثنا التفسيري في اتجاهه الإشاري، وفي تصحيح المفاهيم المتعلقة به، لتجاوز النظرة السطحية لقراءة النصوص الصوفية، وامتلاك مفاتيح قراءتها، لأن أزمتنا الحقيقية هي أزمة مفاهيمية بامتياز.

1: خصوصية ومميزات التفسير الإشاري.

لقد عالج الصوفية القرآن الكريم بنمط معين من الفهم، وهو فهم المعاني التي قد لا تظهر لأول وهلة وإنما تحتاج لتدبر وتأمل، وهذه المعاني تكون من إشارات الآيات وتظهر لأرباب السلوك وأولي العلم، وهي إشارات غنية بمعالم التربية الأخلاقية، التي تمتلك من المقومات ما يؤهلها لتوجيه المريد السالك في معارج الرقي الروحي. يقول الإمام أبي حامد الغزالي في إحياء علوم الدين: «ما من كلمة من القرآن إلا وتحقيقها محوج إلى مثل ذلك، وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقدر غزارة علومهم، وصفاء قلوبهم، وتوفر دواعيهم على التدبر، وتجردهم للطلب، ويكون لكلِّ واحدٍ حَدٌّ في الترقي إلى درجة أعلى منه... فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مِدادًا والأشجار أقلامًا، فأسرار كلمات الله لا نهاية لها، فتنفد الأبحر قبل أن تنفد كلمات الله عز وجل... وأسرار ذلك كثيرة، ولا

(1) ابن عطاء الله الاسكندري، لطائف الـمنن، دار الكتاب المصري، مصر، ص: 235-236.

يدل تفسير ظاهر عليه، وليس اللفظ هو مناقضًا لظاهر التفسير، بل هو استكمال له ووصول إلى لبابه عن ظاهره، فهذا ما نورده لفهم المعاني الباطنة لا ما يناقض الظاهر»[2].

وقصة محنة سيدنا يوسف الصديق صلوات الرحمن عليه وسلامه، من أهم القصص القرآني الزاخر بهاته المعالم الروحية والإشارات العرفانية، حيث لا يخفى أن من سنن الله تعالى في الكون أن يعقب المحن بالمنن والجلال[3] بالجمال، والذل بالعز، فبقدر ما تشتد المحن تأتي بعدها مواهب المنن، وبقدر ما ينزل من الجلال يأتي بعده الجمال. ولهذا فإن أول التمكين ابتلاء، وهذا ما سنستشفه من قصة يوسف عليه السلام، من خلال تفاسير أهل الذوق والعرفان.

النموذج الأول: عرض رؤيا الملك.

قال الله تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (43) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (44) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ(45)} [4].

استهل الإمام القشيري تفسيره لهذه الآيات بقوله: «كان ابتداء بلاء يوسف – عليه السلام- بسبب رؤيا[5] رآها فنشرها وأظهرها، وكان سبب نجاته أيضا رؤيا رآها الملك فأظهرها، ليعلم أن الله

---

(2) محمد بن محمد الغزالي (أبو حامد)، إحياء علوم الدين، دار المعرفة – بيروت، الجزء 1، ص: 293.

(3) الجلال: عبارة عن صفات العظمة والكبرياء، والمجد والثناء، وكل جمال له فإنه حيث يشتد ظهوره يسمى جلالا، كما أن كل جلال له في مبادئ ظهوره على الخلق يسمى جمالا. ينظر: عبد الكريم، موسوعة مصطلحات أعلام التراث العربي، تصنيف ودراسة: أحمد فريد مزيدي، كتاب ناشرون، بيروت، "باب الجيم"، ص: 133.

(4) سورة يوسف، آيات: 35، 42.

(5) والرؤيا كما جاء في عرائس البيان، هي أول مقام المكاشفة، لأن أحوال المكاشفين أوائلها المنامات، فإذا قويت الحال تصير الرؤيا كشفا، وبين الرؤيا والمكاشفات مقامات. ومعاني المكاشفات أن الله سبحانه وتعالى. مثل عالم الملكوت مما فيها مع أسرار الجبروت. بنيران الكواكب والشموس والأقمار. وأيضا: مثل بها أحكام أكابر الأنبياء والأولياء، فالشمس مثل الذات، والقمر مثل الصفات، والكواكب مثل الأوصاف والنعوت والأسماء. ومما كوشف ليوسف عليه السلام: كان يوسف عليه السلام آدم الثاني، لأن عليه كان من كسوة الربوبية ما كان على آدم، فرأت الملائكة على أدم ما رأت، فسجدوا له كلهم، وها هنا سجد له أشراف الأنبياء، وهم خيرٌ من الملائكة، وكيف لا يسجدون لهما، ومن وجههما تتلألأ الأنوار القدوسية، وجلال السبوحية. ينظر: عبد القادر الجيلاني، تفسير الجيلاني تحقيق، أحمد فريد المزيدي، الجزء الثاني، ص:364.

يفعل ما يريد، فكما جعل بلاءه في إظهار رؤيا جعل نجاته في إظهار رؤيا، ليعلم الكافة أن الأمر بيد الله يفعل ما يشاء»[6].

ولما كان المعلومُ لله والمحكومُ أن يوسف عليه السلام يكون في ذلك الوقت هو من يُعبر الرؤيا- قبض القلوب حتى خفي عليها تعبيرُ تلك الرؤيا، ولم يحصل للملك ثلَجُ الصدر إلا بتعبير يوسف، ليُعلَم أن الله سبحانه-إذا أراد أمرا سهل أسبابه»[7].

وأفاض القشيري بلغة عرفانية لطيفة فقال: «إن الله تعالى أفرَد يوسفَ عليه السلام من بين أشكاله بشيئين: بحسن الخلقة وبزيادة العلم، فكان جمالُه سبب بلائه، وصار علمُه سببَ نجاته، لتُعلَمَ مزيَّةُ العلم على غيره، لهذا قيل: «العلم يُعطي وإن كان يبطئ، ويقال: «إذا كان العلم بالرؤيا يوجب الدنيا، فالعلم بالمولى أَولى أن يوجبَ العقبى»[8].

بينما فسر الشيخ الجيلاني هذه الآيات بقوله: «بعدما لبث في السجن بضعا هيأ سبحانه سببا بأن قال الملك: {إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ} وبعدما عجز الملأ عن تعبير رؤيا الملك واجتمعوا على أ نها أضــ غاث أحلام[9]، {وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ(45)} [سورة يوسف، آية: 45][10].

من خلال استقراء التفاسير، ألاحظ اتفاقا بين الإمام القشيري، والإمام الجيلاني على عجز الملأ عن تفسير رؤيا الملك، إلا أن الإمام ابن عجيبة أضاف إشارة أخلاقية عرفانية تتعلق بالروح حيث قال: «الروح في أصل نشأتها علامة داركه، تكاشف بالأمور قبل وقوعها، إذا غابت عن إحساسها الذي حجبها عن ذلك العلم، ولو كانت من كافر إذا غابت عن حسها بنوم، أو اصطلام عقل. فمن طهرها

(6) القشيري، تفسير لطائف الإشارات، تحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، الجزء 3، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1971م، ص: 79.

(7) القشيري، لطائف الإشارات، تحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، الجزء الثالث، ص: 79.

(8) القشيري، لطائف الإشارات، تحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، الجزء الثالث، ص: 79.

(9) عبد القادر الجيلاني، تفسير الجيلاني، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، الجزء الثاني، ص:335.

(10) سورة يوسف، آيات: 42-35.

من دنس الشرك بالتوحيد، وغيبها عن شواغل الحس بالتفرغ والتجريد، رجعت إلى أصلها، وفاضت عليها العلوم التي كانت لها قبل التركيب في هذا القالب الحسي، علماً وكشفاً»[11].

ولا شيء أنفع للنفس في الرجوع لله تعالى من السهر والجوع. وفى الجوع أسرار كثيرة حسية، ومعنوية، وبسببه جمع الله شمل يوسف بأبيه وإخوته، وبه أيضاً ملَّك اللهُ يوسف ونصره ومكنه في الأرض حتى ملك مصر وأهلها[12]. ولذلك قال نبينا-عليه الصلاة والسّلام-: «اللهم أعِنِّي عَلَيهم- أي على قريش-بِسبعٍ كَسَبع يُوسفَ»[13].

كما دعم الإمام ابن عجيبة كلامه بكلام الإمام الغزالي الذي أفاض في علاج الأمراض القلبية، حيث ذكر في كتابه إحياء علوم الدين، أربعين خصلة عن أسرار الجوع. منها قوله: «فالأكل يقسى القلب وفي قسوته حجابه، بينما الجوع يساعد على إنقاص دم الفؤاد وتذويب شحمه، وفي ذوبانه رقته، ورقته مفتاح المكاشفة»[14].

والممدوح منه هو المتوسط دون إفراط ولا تفريط، كما قال البوصيري:

وَاخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوع ومِنْ شِبعٍ ...فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ[15].

وبهذا كان الإمام ابن عجيبة كان أكثر توسعا في شرح الآيات، من حيث الاستدلال بأحاديث نبوية، وتضمينه أقوال نخبة من العلماء والصلحاء، وإضافة إشارات أخلاقية وعرفانية، فقد جمع بين روائع المنظوم، وفوائد المنثور.

أما الإمام القشيري فقد فسرها على طريقته، فهي إشارات منه ورقائق تهم النفس البشرية وتزكيتها، فهو يستخرج الإشارة من العبارة.

أما الإمام الجيلاني فلم يستنبط في هذا الجزء أي إشارة أخلاقية وإنما اكتفى بالتفسير الظاهري للآية. بحيث يمتاز في طريقته بأن يذكر الآية، يفسرها بعبارة سهلة موجزة، ثم يوضح آية بآية أخرى

(11) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الجزء:2، الناشر: حسن عباس زكي، القاهرة، ط 1419هـ، ص:602.

(12) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، الجزء:2، ص:602.

(13) أخرجه البخاري في أكثر من موضع، منها: (كتاب التفسير-سورة الروم).

(14) الغزالي، إحياء علوم الدين، الجزء: 3، دار المعرفة، بيروت، ص: 86-87.

(15) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ص:602.

ويقارن بينهما، حتى يتبين المعنى ويظهر المراد منه. فهو شديد العناية بهذا النوع من التفسير الذي هو تفسير القرآن بالقرآن.

النموذج الثاني: تأويل رؤيا الملك.

قال الله تعالى: {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47)}[16]

جاء في عرائس البيان: {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ}، سماه الصديق في دعواه علم الغيب ومكاشفته، وعلم بأنبائه العجيبة، صادق في مكاشفة الذي استقام الصديقية فيه. وذلك تتابع أنوار الإيقان والعرفان بعد كشف أنوار التجلي في قلبه. ووصف هذا باستواء الحال واستقامة الأعمال... قال ابن الفرجي: «الصديق كأبي بكر رضى الله عنه الذي يبذل الكونين في رؤية الحق، لما قال النبي صلى الله عليه وسلم[17]: «ما أبقيت لأهلك، قال: الله ورسوله»[18].

من خلال عملية الاستقراء ألاحظ أن نجم الدين الكبرى فسر رؤية الملك تفسيرا إشاريا حيث شبه البقرات السبع بالصفات البشرية السبع التي بها القلب محبوس وهي: الحرص والبخل والشهوة والحسد والعداوة والغضب والكبر.

وإذا أراد الله أن يُخلص القلب عن سجن الصفات البشرية يُري الروح الذي هو ملك مصر"القالب" رؤيا، كما قال تعالى: "وقال الملك" أي "الروح"، {إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ} وهن صفات البشرية السبع {يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ} يشير بهن إلى صفات الروحانية السبع التي هي أضداده صفات البشرية وهن القناعة والسخاء والعفة والغبطة والشفقة والحلم والتواضع[19].

---

(16) سورة يوسف، الآيات: 45-47.

(17) سنن الترمذي، رقم الحديث: 3675، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، سنن أبي داود، رقم الحديث: 1680.

(18) البقلي الشيرازي، عرائس البيان في حقائق القرآن، هامشه ابن عربي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، الجزء: 1، لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2008م-1429هـ، ص:365.

(19) نجم الدين الكبرى، التأويلات النجمية في التفسير الإشاري الصوفي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، ج 3، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 2009م، ط 1، ص:325.

فبعد غلبات الصفات الروحانية، واضمحلال الصفات البشرية يظهر مقام فيه يتدارك السالك جذابات العناية، يتبرأ العبد من معاملاته، وينجو عن محبة وجوده، وحجب أنانيته، وكأن حصنه وملجأه الحق تبارك وتعالى[20].

فنجم الدين يروم في تفسيره إلى تربية النفس وتهذيبها وخلاصها من سجن صفات البشرية إلى فضاء الصفات الروحانية.

إلا أن الشيخ الجيلاني بعد أن فسير الآيات ظاهريا خُلص إلى أن: «كل ما جاء به يوسف عليه السلام من التأويل والتدبير مستند إلى الوحي والإلهام والعلم بدقائق المناسبات الواقعة بين ذرائر الأكوان»[21]. أما ابن برجان أثناء تفسيره هذه الآيات فقد أكتفى بالحديث النبوي الشريق «الرؤيا عاجل ببشرى المؤمن»[22].

النموذج الثالث: براءة يوسف الصديق.

قال الله تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52)وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ(53)} [23].

من خلال استقراء التفاسير ألحظ أن الإمام ابن عجيبة بسط الكلام في تفسير الآيات حيث يقول: «ولما جاء الرسول من عند يوسف بالتعبير، وسمعه الملك، تعجب منه، واستعظم علمه وعقله وقال: لا ينبغي لمثل هذا أن يُسجن، {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ } [24]، هل رأين مني ميلا إليهن؟ وتأنى في الخروج، وقدَّم

(20) نجم الدين الكبرى التأويلات النجمية في التفسير الإشاري الصوفي، الجزء الثالث، ص:327.

(21) عبد القادر الجيلاني، تفسير الجيلاني تحقيق، أحمد فريد المزيدي، ص: 358.

(22) رواه الإمام أحمد 6 /445.

(23) سورة يوسف، الآيات: من 49 إلى 53.

(24) سورة يوسف، الآية: 50.

سؤال النسوة، والفحص عن حاله ليظهر براءة ساحته، وليعلم الملك أنه سُجن ظلماً، فلا يقدر الحاسد أن يتوسل به إلى تقبيح أمره[25].

وفي قوله عز وجل: {ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [26]، أي أن يوسف الصديق فعل ذلك التثبت والتأني في الخروج ليعلم العزيز أنه لم يخنه في زوجته بِالْغَيْبِ في حال غيبته، أو بظهر الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة، بل تعفف عنها.

فالمنهج الذي اتبعه ابن عجيبة في هذا الجزء، أنه قسم السورة إلى مقاطع، ثم قام بتفسير كل مقطع حسب ما يقتضيه الظاهر، فكان أكثر توسعا وتمديدا، فهو بحر فعلا، كان بحرا في إشاراته الذوقية والأخلاقية، فقدم من خلال هذه الإشارات منهجا تربويا صوفيا إسلاميا، يسلكه من أراد أن تصفو روحه، وتزكو نفسه، ويحي قلبه، ويحظى بنور معرفة الحق تعالى، فهو يمثل التصوف المغربي الذي يجمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالإشارة.

أما الإمام التستري ففي قوله تعالى: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ} [27]، قال: «أن الله تعالى خلق النفس وجعل طبعها الجهل، وجعل الهوى أقرب الأشياء إليها، وجعل الهوى الباب الذي منه تدخل هلاك الخلق. فسُئل سهل عن معنى الطبع، وعما يوجب العصمة عنه. فقال: «طبع الخلق على أربع طبائع: أولها: طبع البهائم البطن والفرج، والثاني: طبع الشياطين اللعب واللهو، والثالث: طبع السحرة المكر والخداع، والرابع: طبع الأبالسة الإباء والاستكبار. فالعصمة من طبع البهائم الإيمان، والسلامة من طبع الشياطين التسبيح والتقديس وهو طبع الملائكة، والسلامة من طبع السحرة الصدق والنصيحة والإنصاف والتفضل، والسلامة من طبع الأبالسة الالتجاء إلى الله تعالى بالتضرع والصراخ، وطبع العقل العلم، وطبع النفس الجهل، وطبع الطبع الدعوى. أي أن النفس خلقت على الجبلة الأمارة بالسوء طبعا، فحين تخلوا إلى طبعها لا يتأتى منها إلا الشر، ولا تأمر إلا بالسوء، ولكن إذا رحمها ربها ونظر أليها بنظر العناية يقلبها من طبعها ويبدل صفاتها. فقد بحيث فسر طباع النفس وأعطى ما يعصم عنها»[28].

---

(25) ابن عجيبة، تفسير البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ص:603.

(26) سورة يوسف، الآية: 51.

(27) سورة يوسف، الآية: 53.

(28) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الجزء 10، بيروت، دار الكتاب العربي، الناشر السعادة مصر 1394هـ -1974م ص: 206.

والناظر في تفسير الإمام التُستري، يلمح عليه اتجاهه إلى بيان بعض ما تشتمل عليه الآيات من إشارات، وما تدل عليه من الهامات، فيبرز بعض ما يفهمه من دلائل هذه الآيات. فهو يرى أن فهم القرآن لا يدركه إلا الأولياء. فقد ضم إلى الشريعة الحقيقة، فيلمح عليه دلائل التفسير الصوفي المستقيم، ويفسر منهجه بقوله: «أصولنا سبعة... التمسك بكتاب الله تعالى، والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق»[29].

أما الإمام عبد القادر الجيلاني فقد نهج منهج الإشارة والرمز، مما يجعل تفسيره ذو صبغة مميزة وذوق خاص. فقد أضاف إشارة ذوقية وعرفانية حيث قال: «إذا طلعت شمس العناية من أفق الهداية صارت النفس ملهمة، إذ هي تنورت بأنوار شمس العناية، فألهمها نورها فجورها وتقواها، وإذا بلغت شمس العناية وسط سماء الهداية وأشرقت الأرض بنورها، صارت النفس مطمئنة مستعدة لخطاب ربها[30] {ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً} [31].

في حين نرى القشيري أضاف عبارات عرفانية مكملة لكلام غيره فقال: {ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [32]، بيان الشكر على ما عصمه الله، وقوله: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي} [33]، بيان العذر لما قصر في أمر الله، فاستوجب شكره زيادة الإحسان، واستحق بعذره العفو. والعفو باد من قوله[34]: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي} [35].

فالملاحظ أن تفسير القشيري يمثل الجانب الإشراقي المشرقي، الذي هو ذكر لطرف من إشارات القرآن على لسان أهل المعرفة. فهو تفسير إشاري عرفاني تجاوز فيه صاحبه كثافة الألفاظ إلى لطائف المعاني، ويتعدى حدود العبارة للدخول إلى عالم الإشارة. إنه كشف لذوق، وإبراز لإحساس تحصل من المجاهدة، ويساعد عليه فضل الله تعالى، الذي فجر ينابيع الفهوم.

---

(29) عبد الحليم محمود، مناهج المفسرين، مصر، دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى، 1978م، ص: 33.

(30) عبد القادر الجيلاني، تفسير الجيلاني، تحقيق، أحمد فريد المزيدي، ص:360

(31) سورة الفجر، الآية: 31.

(32) سورة يوسف، الآية: 52.

(33) سورة يوسف، الآية: 53.

(34) القشيري، تفسير لطائف الإشارات، تحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، ص:81.

(35) سورة يوسف، الآية: 54.

كما يتضح أيضا من خلال عملية استقراء التفاسير اتفاق كل من الإمام القشيري والجيلاني وابن عجيبة على أن قائل هاته

الآيات: {ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ(53)} هو يوسف عليه السلام، وأورد الإمام ابن عجيبة رواية ثانية تفيد بأن القائل هي زليخا -زوجة العزيز-وهذا ما ذهب إليه الحافظ ابن كثير[36]. وبالتالي فكل مفسر فسر مراد الله تعالى إشاريا انطلاقا من مقامه وذوقه ووجده.

- النموذج الرابع: التمكين في الأرض.

قال الله تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55) وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (57)}.

فسر القشيري في بيان قوله تعالى:" {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي} فلما اتضحت للملك طهارة فعله ونزاهةُ حاله استحضره لاستصفائه لنفسه، فلما كلمه وسمع بيانه رفع محله ومكانه، وضمنه بره وإحسانه، فقال:" {قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54)} [37].

أما في عرائس البيان فقد جاء فيه: أي «ذو مكانة ومرتبة علية ومنزلة رفيعة. أي أنت بما تخبر من الحق وأسراره متمكن أمين. فما أودع الله في سرك من النبوة والرسالة والولاية حيث يشهد بصدقك، جمالك وجلالك. فإن معنى الباطن يظهر من ظاهرك، أنت عندنا ذا مكانة وذا أمانة، فاحكم بنا ما شئت فإني لا أوثر على أمرك شيئا»[38].

ثم بين سبحانه تمكين يوسف ومكانته واستقلاله بنفسه في مقام الرسالة والنبوة بقوله: {وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ} الإشارة فيه؛ ملك بحسنه وجماله ولطفه وكماله، ارض قلوب الخلق محبة وهيبة، تجلس محبته حيث شاءت في صميم فؤاد الناس، بقوله: {يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ} أضاف مكانة يوسف إلى نفسه، لا إلى سبب من أسباب الحدثان، وذلك إشارة إلى سبق العناية له بالرسالة، واكسائه

---

(36) ينظر: ابن عجيبة، تفسير البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ص: 603.بتصرف.

(37) القشيري، تفسير لطائف الإشارات، تحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، ص:81.

(38) البقلي الشيرازي، عرائس البيان في حقائق القرآن، ص: 367.

كسوة جماله وجلاله، ثم بين أن ذلك رحمته الأزلية التي خص بها من يشاء من عباده، {نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ} [39]، أي بلغنا يوسف إلى هذه المراتب السنية الرفيعة، برحمتنا بعنايتنا وكرمنا هذا مكان العناية التي تنقطع عندها الأسباب[40].

ثم بين أنه مع جلاله ولطفه لا يضيع أجر العاملين الذين سلكوا سبيل الأعمال ليصلوا إلى درجة الأحوال بقوله: {وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} أجر أهل الإحسان، كشف الجمال، مشاهدة الرحمن. وإحسانهم طلب طلوع صبح الأزل من مشارق الأبد، بعيون الأرواح ودوران بصائر الأسرار[41].

ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام في جوابه السائل عن الإحسان قال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[42]، فإحسان يوسف مراقبة الله في بلائه، وذلك الإحسان والمراقبة من عصمة الله ورحمته، لأن العصمة مقرونة بالاصطفائية، وكيف كان معصوماً من لم يسبق له الاصطفائية في الأزل.

وأيضا إحسان يوسف العفو والكرم للخاطئين وتعريف الله بوصفه وصفاته إلى عباده أن يحبوه ويطيعوه وأيضا إحسان يوسف كشف جماله لأهل البلاء والقحط حتى عاشوا بالنظر الى وجهه[43].

وفي قوله تعالى: {وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} قال الشيخ الجيلاني: «أي يتقون محارم الله طلبا لمرضاته وقياما بحسن آدابه. رجاء من ثوابه وخوفا من عقابه»[44].

وبهذا البيان العرفاني استجلي خصوصية التفسير الإشاري، حيث أن هناك اختلاف في طريق الإشارة بناءا على اختلاف البيئات والأذواق، فهو فهم عن المراد الإلهي انطلاقا من مقامات ومواجيد كل صوفي. فكل تفسير صوفي إذن هو فيض يعتمد على رياضة روحية يأخذ بها الصوفي نفسه، حتى يصل إلى درجة الكشف وتلقي الإشارات القدسية.

---

(39) البقلي الشيرازي، عرائس البيان في حقائق القرآن، ص:367.

(40) البقلي الشيرازي، عرائس البيان في حقائق القرآن، ص: 367.

(41) البقلي الشيرازي، عرائس البيان في حقائق القرآن، ص:367.

(42) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، بَاب سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم، رقم الحديث: 49.

(43) البقلي الشيرازي، عرائس البيان في حقائق القرآن، ص:367-368.

(44) عبد القادر الجيلاني، تفسير الجيلاني تحقيق، أحمد فريد المزيدي، ص:361.

ولهذا تجد الصوفي يعبر عن مواجيده برموز وإشارات، لأن اللغة تبقى عاجزة عن احتواء كل ما يقذفه الحق في قلبه من معان وأسرار ودلالات، يقول الإمام أبو العزايم: «إن العبارة لا تفي ببيان المضنون من كلام العارفين، إنما هي أنوار وإشارات تذوق النفس منها على قدر ما وهبها الله، إذ العبارة لا تكشف الحقيقة»[45]. وهذا ما يفسر الفرق بين تفسير أهل الظاهر وتفسير أهل الباطن.

2: القيم التربوية الثاوية في الآيات القرآنية.

من لطائف أسرار هذه القصة أستشف مجموعة من الإشارات العرفانية والذوقية الثاوية في الآيات القرآنية، وهي بعض من القيم والأسس التربوية التي ترتكز على التربية الروحية للفرد، وما ينبغي أن يتحلى به المريد السالك، من أجل إحياء معاني الدين في القلوب.

- العزلة عن الناس أو الخلوة؛ وكما قال الإمام القشيري: «العزلة عن غير الله توجب الوصلة بالله. بل لا تحصل الوصلة بالله إلا بعد العزلة عن غير الله»[46].

فمكوث يوسف في السجن بضع سنين كمال تربيته في الخلوة وبلوغه أخص درجة الأنس بالله، وزيادة القوة في الوجد وتمكينه في الصحو، ألا ترى إلى النبي صلى الله عليه وسلم كيف تحنث في غار حراء وأنسه في الخلوة في أوائل النبوة»[47].

فالخلوة تمكن المريد من تطهير النفس وتغييبها عن شواغل الحس بالتفرغ والتجريد، حتى ترجع إلى أصلها وتفيض عليها العلوم والمعارف. قال صاحب الفيوضات الروحية ابن عطاء الله السكندري في الحكم العطائية: «متى أَوْحَشَكَ مِنْ خَلْقِهِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بابَ الأُنْسِ بِهِ»[48].

- مجاهدات النفس ورياضتها بقمع شهواتها. قال البقلي الشيرازي: «آيات يوسف سواطع نور الحق من وجهه، وظهور علوم الغيب في قلبه، ومعرفته بذات الله وصفاته، وما وضع الله في النفس

---

(45) مصطفى محمود، السر الأعظم، دار المعارف، الطبعة العاشرة، القاهرة، 1119، ص: 12.

(46) القشيري، تفسير لطائف الإشارات، تحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، ص: 211.

(47) البقلي الشيرازي، عرائس البيان في حقائق القرآن، ص: 364.

(48) ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، شرح ابن عباد النفزي الرندي، مؤسسة الأهرام القاهرة، الطبعة الأولى، 1988م، الحكمة: 191، ص: 63.

الأمارة من عظيم قهر شهواتها، واستلاء هواها، ولطيفة ما بينها وبين طبائع الشياطين، وحسن عاقبته، وبلوغه إلى أهل التمكين، وهذه البراهين تذكرة وتبصرة للمريدين والمحبين العارفين»[49].

قال ابن برجان: «من عود نفسه المجاهدة وجوارحه الكف عن المناهي، فإن الله يقبض له العصمة من حيث يدري ولا يدري»[50]. يقول الحكيم الترمذي في كتابه" الرياضة النفس": «فأما الرياضة فهي مشتقة عربيتها من الرضا، وهو الكسر، وذلك أم النفس اعتادت اللذة والشهوة، وأن تعمل بهواها فهي متحيرة، قائمة على قلبك بالأمرة، وهي الأمر بالشهوة فيحتاج إلى أن يفطمها-يقصد السالك-فإذا فطمها عن المادة انفطمت.... فهذه النفس إذا فطمتها انكسرت عن الإلحاح عليك»[51].

ولكي تخرج النفس عن ظلمتها، فعلى السالك أن يهيئها للمسير إلى أعلى المراتب، والسير على درجتين، أو مرتبتين، وذلك كما قال صدر الدين القونوي: «اعلم أن التقرب إلى الله تعالى على قسمين: الأول يسمى بطريق أداء الفرائض، وهو يتعلق بسير المجذوب السالك، ويسمى أيضا بسير المحبوب المتضمن فناء الذات، وفي هذا السير يكون السائر سمع الحق وبصره.

والثاني: تقرب النوافل، ويسمى بالسير المحبي المتضمن فناء الصفات، وفي هذا السير يكون الحق سمع السائر وبصره»[52].

فالسالك يكون محتجبا بحجب النفس، فإذا تحقق بأداء الفرائض والنوافل، «خرج عن ظلمة النفس، ودخل في نور فسيح القلب والروح، وشهد أن الحق هو عين الأشياء، بل عين قوي العبد السالك»[53].

وهذا تأويل الصوفية لقوله جل شأنه في الحديث القدسي: «ما تقرب إليَّ المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم، وفي رواية للبخاري: «وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال

---

(49) عبد القادر الجيلاني، تفسير الجيلاني تحقيق، أحمد فريد المزيدي، ص: 339.

(50) ابن برجان، تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم، المجلد 3، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1971، ص:150.

(51) محمد بن علي الحكيم الترمذي، رياضة النفس، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1426/ 2005، الطبعة الثانية: ص: 34.

(52) صدر الدين القونوي، شرح الحديث الأربعين النبوي، طبع مطر، 1324ه، ص: 38.

(53) القونوي ، شرح الحديث الأربعين النبوي، المعروف بكشف أستار جواهر الحكم المستخرجة من جوامع الكلم، طبع القاهرة، 1324ه، ص: 38.

عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها بي يسمع بي يبصر بي يبطش وبي يمشى، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض روح عبدي المؤمن من يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه».[54]

- الجوع وفي ذلك يقول الشيخ أبو مدين: «الجوع مطية العابدين وطريق الصالحين، ومنهاج العارفين، ومفتاح المهتدين، ونهاية الواصلين إلى أعلى العليين»[55].

وفي فضائل الجوع قيل لرابعة العدوية رضي الله عنها: «بأي شيء يصل الواصل إلى الله تعالى؟ فقالت: بالجوع. فقيل لها: وما الجوع؟ فقالت: الجوع تنزيه النفس عن اللذات، فمن نزه نفسه عن اللذات في الدنيا نال مقصوده في الاخرة»[56].

- الأخذ بالأسباب والتوكل، فإن اللجوء للأسباب والأخذ بالأسباب لا يقدح في التوكل والإيمان. فالحق سبحانه وتعالى لكمال عظمته خلق هذه الدنيا وخلق الأسباب والمسببات وربطها ببعض. فتحريك الأسباب مباح والتعويل على اليقين، بمعنى أن تتيقن بأنه فعال على الحقيقة. ومن هنا فالتوكل على الله مطلوب والأخذ بالأسباب مطلوب، ولذا قيل ترك الأسباب جهل وترك التوكل فسق. «فإن التوكل من أسباب المقامات وحقيقة التوكل العلم بوحدانية الله وغلبة قهره على كل ذرة»[57].

يقول ابن عطاء الله السكندري في الحكم العطائية: «إرادتُك التَجْرِيد مع إقامِة اللهّ إيَّاك في الأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامَةِ اللهّ إيَّاك في التجْرِيدِ انحِطاطٌ عن الهِمَّة العَلِيَّة»[58].

-الحلم والصبر، والتأني في الأمور وعدم العجلة: فالصديق عليه السلام لم يُجب الداعي ساعة دُعي بعد طول سجنه، وهذا فيه دليل على حلمه وصبره، وعدم اهتباله بضيق السجن. وفي هذا المعنى

---

(54) رواه البخاري، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم الحديث:6137.

(55) Abu Madyan Shuàyb ibn al-Husain al-Ansàri, The Way Of Abu Madyan, edited and translated: by Vincent j. Cornell, The Islamic Texts Society 1996, p: 59.

(56) Abu Madyan Shuàyb ibn al-Husain al-Ansàri, The Way Of Abu Madyan. p:61.

(57) البقلي الشيرازي، عرائس البيان في حقائق القرآن، ص: 364.

(58) ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، شرح ابن عباد النفزي الرندي، الحكمة الثانية، ص: 46.

تواضع معه نبينا صلّى الله عليه وسلّم حيث قال: «لَو لَبِثت في السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسفُ لأَجَبْتُ الدَّاعِي»[59].

فالصبر الجميل، هو أن ترى البلاء جميلا من الجليل، والصبر يدفع البلاء إلى الخليل[60].

-الوفاء بالعهد، فالصديق لم يذكر امرأة العزيز كرماً، ومراعاةً للأدب، ورعياً لذمام زوجها، وستراً لها. بل ذكر النسوة اللاتي قطعن أيديهن[61]. وفي هذا عبرة للمماليك في حضرة السادة. «فيوسف لما حفظ حُرمة زليخا مَلَكَ مُلكَ العزيز، وصارت زليخا امرأته حلالا»[62].

-اتقاء مواضع التهم والشبه، فالمؤمن ينبغي أن يتقي مواضع التهم، ويجتهد في نفيها، وفي الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يَقِفَنَّ مَواقِفَ التُّهَم»[63].

-من آداب السير إلى الله التعفف عن الحرام. فقصة يوسف عبرة لأرباب التقوى فإنه لما ترك هواه رقاه الله إلى ما رقاه. قال الجنيد: «رفع درجات من يشاء بإسقاط الكونين عنه ورفعه عن الالتفات إلى الأحوال والمقامات، ليكون خالصا لها بلا علة»[64].

-التواضع والأدب مع الله تعالى في جميع الحالات والشؤن، فعند قوله: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي} أي: لا أنزهها عن السوء قال ذلك عليه السلام : هضما لنفسه البرية عن كل سوء، وتواضعا لله تعالى، وتحاشيا عن التزكية والإعجاب بحالها، على أسلوب قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[65]. أو تحديثا بنعمة الله تعالى وإبرازا لسره المكنون في شأن أفعال العباد. أي لا أنزهها من حيث هي هي، ولا أسند هذه الفضيلة إليها بمقتضى طبعها من غير توفيق من الله سبحانه، بل إنما ذلك بتوفيقه جل شأنه ورحمته، وهذا منتهى الأدب مع المولى عز وجلا.

---

(59) – أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله عز وجل ونبئهم عن ضيف إبراهيم، ص: 476.

(60) – عبد القادر الجيلاني، تفسير الجيلاني، ص:383.

(61) – ابن عجيبة، تفسير البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ص:603.

(62) – القشيري، تفسير لطائف الإشارات، تحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، اص:98

(63) – رواه أبو داود وصححه الحاكم عن عائشة، كتاب المقاصد الحسنة فيما اشتهر على الألسنة، رقم الحديث: 1085.

(64) – عبد القادر الجيلاني، تفسير الجيلاني تحقيق، أحمد فريد المزيدي، ص:383.

(65) – رواه أبو داود، سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل النبي صلى لله عليه وسلم، رقم الحديث: 3615.

قال ابن عطاء الله السكندري: «تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه، تحقق بذلك يمدك بعزه، تحقق بعجزك يمدك بقدرته، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته»[66].

-ومن آداب السير الى الله وجوب مخالفة النفس ومجهدتها ورياضتها، وعدم تزكيتها، ودوام اتهامها، ولو بلغت من التصفية ما بلغت. قال الشيخ الجيلاني: «إن النفس خلقت أمارة بالسوء، فإذا رحمها ربها جعلها مأمورة، وبنور الرحمة مستورة، وبالواردات الربانية مقهورة، وبنظر العناية منظورة، وذنوبها مغفورة، وأخلاقها المذمومة محمودة، وعلى العبودية مطمئنة، ولجدبات الإلهية قابلة، وإلى ربها راجعة راضية مرضية في زمرة خواص العباد داخلة، ولجنة جواز الحق مستلهمة، وبسطوات تجلي صفات الجمال والجلال فانية وبصفة بقاء الله باقية»[67].

قال بعض الصوفية: «وكيف يصح لعاقل أن يزكي نفسه والكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يقول: إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، والنفوس ثلاثة: أمّارة، ولوّامة، ومطمئنة. وزاد بعضهم: اللهامة من قوله تعالى[68]: {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8)} »[69].

ونغترف من معين ابن عطاء الله السكندري قوله: «أَصْلُ كُلَّ مَعْصِيَةٍ وَشَهْوَةٍ وَغَفْلَةٍ؛ الرِّضَا عَنِ النَّفْس. وأَصْلُ كُلَّ طَاعِةٍ وَيَقَظَةٍ وَعِفَّةٍ؛ عَدَمُ الرِّضَا مِنْكَ عَنْها. ولأنْ تَصْحَبَ جَاهِلاً لا يَرْضَى عَن نفسِه، خيرٌ لكَ مِن أنْ تَصْحَبَ عَالِماً يرضى عَنْ نَفْسِه .. فأيُّ عِلْمٍ لعَالِمٍ يَرْضَى عَنْ نفسِه؟! وَأيُّ جَهْلٍ لجَاهِلٍ لا يَرْضَى عَنْ نَفْسِه؟!»[70].

– تسلية أهل البلاء، إذا صحبهم الإحسان والتقوى، وبشارتهم بالعز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والنصر والتمكين في الأرض بعد الاستضعاف والهوان. وفي ذلك يقول الشاعر:

وكُلُّ عَبْدٍ أَرَادَ الله عِزَّتَه   فَهُو العَزِيزُ، وعزُّ الله يغْشَاه
قَدْ لاَحَ عِزٌّ لَه في الأرْضِ مُنْتَشِرٌ   فَهُو الحَبِيبُ لِمَنْ نَادَاهُ لبّاهُ
يا حُسْنَهُ ومَتى قَد طَالَ مَطْلَبُه ...تَاجُ البرية والرحمن صفّاه.[71]

(66) – ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، شرح ابن عباد النفزي الرندي، الحكمة 178، ص: 74.

(67) – عبد القادر الجيلاني، تفسير الجيلاني، ص:383.

(68) – سورة الشمس، الآية:8.

(69) – ابن عجيبة، تفسير البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ص:606.

(70) – ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، شرح ابن عباد النفزي الرندي، الحكمة 35، ص: 52.

(71) – ابن عجيبة، تفسير البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ص:607.

عدم اليأس والقنوط من رحمة الله فالله ملك يوسفا خزائنه بعد الخلاص من السجن. وقد أنشد إبراهيم بن المهدي[(72)]:

إذا الحادثات بلغن النهى وكادت تذوبُ لهن المهج

وحل البلاء وقل العزاءُ فعند التناهي يكونُ الفرج.

قال ابن عطاء الله السكندري: «لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء –موجبا ليأسك؛ فهو ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك لا فما تختار نفسك وفي الوقت الذي يريد، لا في الوقت الذي تريد»[(73)].

ففي هذا كله تمثلات لمعاني التربية الروحية التي بثت بين ثنايا هذه القصة المقدسة، المليئة بالأسرار الربانية، والحكمة الإلهية، وهي توضح أن بقدر ما ينزل من الجلال يأتي بعده الجمال، سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا. فالجلال والجمال مرتبطان مع بعظهما بعضا، مع ما بينهما من تضاد على الظاهر، فالجلال مظهر الغلبة والقهر والقدرة، والجمال مظهر اللطف والرحمة.

كما فيه تنبيه إلى تجربة يوسف عليه السلام الفردية في الإيمان، المرادفة للتعمق العمودي في معرفة الله، وما يتولد عنه من التسليم بغلبة أمر الله والتوكل عليه.

فاللغة الإشارية والرمزية التي وظفها كل مفسر إنما هي كما عبر عنها الشيخ ابن عجيبة بقوله: «إنهم خاضوا بحار التوحيد، وكوشفوا بأسرار التفريد، فأرادوا أن يعبروا عن تلك المعاني فضاقت عبارتهم عنها، لأنها خارجة عن مدارك العقول، لا تدرك بالسطور ولا بالنقول، وإنما هي أذواق ووجدان، فمن عبر عنها بعبارة اللسان، كفر وزندق. وهذه المعاني هي الخمرة الأزلية التي كانت خفية لطيفة، ثم أظهرت محاسنها، وأبدت أنوارها وأسرارها، وهي أسرار الذات وأنوار الصفات، فمن عرفها

(72) إبراهيم بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور (224- 162هـ/ 779 -839 م)، العباسي الهاشمي، أبو إسحاق. ويقال له ابن شكلة الأمير، أخو هارون الرشيد .ولد ونشأ في بغداد، وولاه الرشيد إمارة دمشق، ثم عزله عنها بعد سنتين، ثم أعاده إليها فأقام فيها أربع سنين، ينظر: محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة، عن مؤسسة دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، سنة 1987.

(73) ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، شرح ابن عباد النفزي الرندي، الحكمة السادسة، ص: 47.

وكوشف بها اتحد عنده الوجود، وأفضى إلى مقام الشهود، وهي منزهة عن الحلول والاتحاد، إذ لا ثاني لها حتى تحل فيه أو تتحد معه»[(74)].

خلاصة:

من خلال هذا البحث الموجز استجلي خصوصية ومنهج كل مفسر على حدة، فكل واحد يفسر مراد الله تعالى انطلاقا من مقامه وذوقه ووجده، كما تفرد كل واحد بإشارات عن غيره، وهذا التعدد الذي نلمسه إنما هو من قبيل التنوع والتكامل والترقي، وليس من قبيل التضاد، أو التعارض.

يعتبر التفسير القرآني في اتجاهه الإشاري أحد أثمن أوجه التراث الإسلامي من حيث قيمته المعرفية، فهو تفسير فيضي، يعتمد على رياضة روحية يأخذ بها الصوفي نفسه، حتى يصل إلى صفاء النفس، يمكنه من تلقي الإشارات القدسية، التي هي أسرار تنقدح في قلب المؤمن التقي الصالح. كما لاحظنا أن التفسير الإشاري ذا طبيعة قيمية تنهل من البعد الأخلاقي، يهدف مجال سمو النفس، وتقوية الإيمان، وتثبيت اليقين. فالتفسير الصوفي لم يكن تفسيرا عاديا تقليديا، بل كان تفسيرا إبداعيا خلاقا، ظاهره الجمال وباطنه الجلال.

كما تتضح أيضا خصوصية ووجهة هذا العلم وهو ثبوت أنه لا مخالفة بين الشريعة والحقيقة، ولا بين الظاهر والباطن على الحقيقة، وأن حقيقة العلاقة بين الشريعة والحقيقة إنما هي التلازم والاتحاد، ولقد أكد الأئمة العارفون بالله هذه العلاقة التلازمية بين العلمين،

قال الإمام القشيري: «الشريعة أمر بالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية، وكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فأمرها غير مقبول، وكل حقيقة غير مقيَّدة بالشريعة فأمرها غير محصول، والشريعة جاءت بتكليف من الخالق، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق، فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده، والشريعة قيام بما أمر، والحقيقة شهود لما قضى وقدّر، وأخفى وأظهر»[(75)].

كما أن الشيخ أبا مدين التلمساني، كان ممن يحرصون على الجمع بين الشريعة والحقيقة، ويذم أهل الظاهر، ويذم الباطنية على الانفراد، ويقول: «إن الجامع بين الطرفين هو الكامل في السنة والمعرفة،

---

(74) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، الجزء: 2. ص:158.

(75) أبو القاسم القشيري (ت465هـ)، الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق: معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية، بيروت، ط: 1426هـ-2005م، ص: 82-83.

لذلك فرقنا وفرق أهل الله في التعبير بين الإشارة والتحقيق لئلا يتخيل من لا معرفة له بها آخذ أهل الله، أنهم يرمون بالظواهر فينسبونهم إلى الباطنية، وحاشاهم من ذلك، بل هم القائلون بالطرفين»[76].

وهذا تجلى ذلك بوضوح في تفسير آيات القصة، وفي مسارها إلى غايتها، بما لا يدع مجالا للممرات واللجاج، والتعنت في ادعاء مخالفة الحقيقة للشريعة، حيث يجد الطعن سبيله إلى التصوف.

وإنما الحقيقة في حقيقتها لا تخالف الشريعة، ولأن الباطن في حقيقته لا يناقض الظاهر في حكمه، فالشريعة والحقيقة وجهان لعملة واحدة، وما الأمر إلا ظهور وبطون، وجلاء وخفاء.

لائحة المصادر والمراجع:

-القرآن الكريم.

ابن العربي (محي الدين)، الفتوحات المكية، تحقيق: الدكتور عثمان يحي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1974م، الجزء الأول.

ابن برجان، تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم، المجلد 3، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1971.

ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الجزء:2، الناشر: حسن عباس زكي، القاهرة، ط 1419هـ.

ابن عطاء الله الاسكندري، لطائف الـمنن، دار الكتاب المصري.

ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، شرح ابن عباد النفزي الرندي، مؤسسة الأهرام القاهرة، الطبعة الأولى، 1988م.

أبو القاسم القشيري (ت465هـ)، الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق: معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية، بيروت، ط: 1426هـ-2005م.

(76) - ابن العربي (محي الدين)، الفتوحات المكية، تحقيق: الدكتور عثمان يحي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1974م، الجزء الأول، ص: 654.

أبو القاسم القشيري، تفسير لطائف الإشارات، تحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، الجزء 3، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،1971م.

أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، الجزء: 3، دار المعرفة، بيروت.

أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الجزء 10دار الكتاب العربي، بيروت، الناشر: السعادة مصر 1394هـ -1974م.

البقلي الشيرازي، عرائس البيان في حقائق القرآن، هامشه ابن عربي، الجزء: 1، المطبع العالي نولكشوز، الهند، (1300هـ).

عبد الحليم محمود، مناهج المفسرين، دار الكتب المصرية، مصر، الطبعة الأولى، 1978م.

عبد القادر الجيلاني، تفسير الجيلاني، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، الجزء الثاني، المكتبة المعروفية كويتا، باكستان، ط جديدة منقحة 2010م-1431هـ.

عبد الكريم، موسوعة مصطلحات أعلام التراث العربي، تصنيف ودراسة: أحمد فريد مزيدي، كتاب ناشرون، بيروت.

القونوي (صدر الدين)، شرح الحديث الأربعين النبوي، المعروف بكشف أستار جواهر الحكم المستخرجة من جوامع الكلم، طبع القاهرة، 1324ه.

محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة، عن مؤسسة دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، سنة 1987.

مصطفى محمود، السر الأعظم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة العشرة، 1119.

نجم الدين الكبرى، التأويلات النجمية في التفسير الإشاري الصوفي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، ج 3، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 1، 2009م.

Abu Madyan Shuàyb ibn al-Husain al-Ansàri, The Way Of Abu Madyan, edited and translated: by Vincent j. Cornell, The Islamic Texts Society 1996